طبع الالتزام في الجاهلية والإسلام

د. صديق عبد الرحمن إبراهيم موسى

أستاذ مشارك - قسم الأدب والنقد والبلاغة- كلية اللغة العربية
جامعة القرآن الكريم والعلوم الاسلامية

المستخلص:

تناول البحث طبع الالتزام في الجاهلية والإسلام. أتت أهمية البحث بالنظر إلى ضرورة الاعتبار والالتزام بطابع المنهاج المثالي الذي جاءت به الرسل. هدف البحث إلي بيان أهمية الالتزام الأدبي للانتقال من التنظير إلى التطبيق الواقعي لتعاليم الإسلام، مما يؤكد على التمايز الذي زاد من إرساء دعائم منهجية الإسلام في رعايته للأخلاق. انتهج البحث المنهج الاستقرائي والوصفي التحليلي. خلص البحث في خاتمته إلى عدة نتائج منها؛ يمثل الطبع القيم والمثل الروحية وهي قيم أدبية صالحة لكل زمان ومكان، أعطت الخلافة الأولي القراءة الصحيحة لطابع الأدب الإسلامي، في جوانب الالتزام والمثالية والواقعية، لقد باءت آداب وأذناب العصر الجاهلي بالفشل أمام تحديات القرآن الكريم، التوجهات القرآنية والتعاليم النبوية، أكثر القيم ثباتا أمام التيارات الحضارية والمتغيرات الثقافية. وخلص البحث إلى عدد من التوصيات منها؛ الالتزام بالسيرة النبوية مرجعا للالتزام والمثالية والواقعية. معرفة المثاليات والقيم الروحية والأدبية لدين الإسلام، للتغلب على المثاليات غير الإسلامية.

كلمات مفتاحية: الالتزام، القيم والمُثل الروحية، القرآن الكريم والسنة، الجاهلية، الأدب.

Compliance Etiquette before and after

Dr. Sedieq Abdul Rahman Ibrahim Musa/ Co-professor

Abstract

The research dealt with the nature of commitment in ignorance and Islam. The importance of the research came in view of the necessity of taking into account and adhering to the nature of the ideal curriculum that the messengers came with. The aim of the research is to demonstrate the importance of moral commitment to move from theorizing to the realistic application of the teachings of Islam, which confirms the differentiation that has further laid the foundations of Islam's methodology in its care of morals. The research adopted the inductive and descriptive analytical method. The research concluded in its conclusion to several results, including; The character represents spiritual values and ideals, and they are literary values that are valid for every time and place. The first caliphate gave the correct reading of the character of Islamic literature, in the aspects of commitment, idealism and realism. The manners and sinners of the pre-Islamic era failed in the face of the challenges of the Holy Qur'an, Quranic trends and prophetic teachings, the most stable values in the face of currents. Civilization and cultural variables. The research concluded with a number of recommendations, including; Commitment to the Prophet's biography is a reference to commitment, idealism and realism. Knowing the ideals and the spiritual and moral values of the religion of Islam, in order to overcome the non-Islamic ideals.

Keywords: commitment, spiritual values and ideals, the Holy Quran and Sunnah, pre-Islamic era, literature.

المقدّمة:

الحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد، لقد جاء الإسلام بالعلوم النظرية في الجوانب الشرعية المتعددة، لتكون المنطلق المثالي للحياة البشرية، مع الالتزام بها حسا وعقلا وتحويلها إلى أرض الواقع تطبيقا وتطبيعا، وكان أول من قام بذلك العمل الشرعي رسول الله صلي الله عليه وسلم، بعد نزول الوحي عليه متناسقا مع روح الإسلام نظريا وعمليا.

لقد أصبح الالتزام بالأحكام الشرعية واجبا علي الأمة الإسلامية وفي هذا الجانب كانت المفارقات الأدبية، لأن التطبيق علي شقين فالأول علي المستوي الفردي بتربية النفس، والثاني

بالتطبيع علي المستوي الجماعي التكافلي وهو محط الأنظار إذ به يتم الحفاظ علي مقاصد الشريعة التي بها تستقيم الحياة، وتصفو الأخلاق ويستقيم السلوك يصبح تعبيرا صادقا عن طبائع الإنسان الأدبية، وتكون مهيئة للإبداع والابتكار، تحت مظلة الأمن والسلام لتتحول المواقف التطبيقية للأدب إلي صور إنشائية وتعبيرية من النثر والنظم، لتعطي ثمرة جديدة ذات طابع نفعي متعدِّي، في لون محدد من ألوان الأدب من قصة قصيرة أو طويلة أو رواية أو مقال أو مثل أو رسالة أو حكمة أو خطابة، وبذلك تكتمل دائرة الأدب من التطبيق إلى التطبيع لدى الفرد والمجتمع، بين الماضي والحاضر. ونحن في هذا البحث بين يدي أوَّل تجربة بشرية بعد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، في جانب الالتزام التطبيقي والتطبيعي للتشريع الرباني الذي هو جوهر الأدب، وسط أمواج عاتية من التيارات العصية من أذناب العصر الجاهلي، وذلك ما بين تحديات القرآن الكريم، ومعجزات سنة النبي محمد، وبين رواسب آداب وأخلاق من بقايا الجاهلية، في حقبة لا تعرف التصنيف الأدبي الذي قام لاحقا علي أنواع متعددة من الأجناس الأدبية، ولقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة ونتائج وزيلته بالمصادر والمراجع، واتبعت فيه منهج الإستقراء والوصف والتحليل.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث بالنظر إلي ضرورة الاعتبار والالتزام بطابع المنهاج المثالي الذي جاءت به الرسل، ولذا يجب أن يتبعه الناس من بعدهم ويلتزمون به في واقع حياتهم التي لا تُبرَّأُ من خلل أو زلل كما هي الفطرة المثالية عند البشر، مع ضرورة استشفاف مظاهر الفنون الأدبية التي استندت بدورها لاحقا علي مجمل المرتكزات الأدبية والأخلاقية المنظورة والمقرورة فعلا والمقروءة نثرا أو نظما، لتلقيح تلك الألوان من المجالات الأدبية وتحويلها إلي إنتاج فني ينتقل إلى دائرة النقد الموضوعي في إطار عجلة المعرفة الشاملة.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلي بيان أهمية الإلتزام الأدبي للإنتقال من التنظير إلي التطبيق الواقعي لتعاليم الإسلام، مما يؤكد علي التمايز الذي زاد من إرساء دعائم منهجية الإسلام في رعايته للأخلاق.

منهج البحث:

منهج البحث هو الاستقراء والوصف والتحليل.

أسئلة البحث:

يركز البحث في الإجابة عن الأسئلة التالية:

لماذا لا يعبر الأدب عن روح الإسلام نظريا فقط دون التطبيق والتطبيع؟.

أين موقع المثالية والواقعية بإزاء نظرية تطبيق الالتزام الأدبي؟.

(3) هل التطبيق العملي والالتزام النظري في الأدب هما وجهان لعملة واحدة؟.

طبع الإلتزام في الأدب الجاهلي

الطبع في اللغة:

قال ابن منظور في لسان العرب: الطبع والطبيعة الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان، والطباع كالطبيعة مؤنثة، ويجمع طبع الإنسان طباعا، وهو ما طبع عليه من طباع الإنسان في مأكله ومشربه وسهولة أخلاقه وحزونتها وعسرها ويسرها وشدته ورخاوته وبخله وسخائه، والطبع المثال يقال اضربه على طبع هذا وعلى غراره وصيغته وهديته أي على قدره، وطبعه الله على الأمر يطبعه طبعا فطره، وطبع الله الخلق على الطبائع التي خلقها فأنشأهم عليها، وفي الحديث (كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب) أي يخلق عليها، و الطباع ما ركب في الإنسان من جميع الأخلاق التي لا يكاد يزاولها من الخير والشر، وطبعه تطبيعا فتطبع.[1] يتبين لنا من كلام ابن منظور أن الطبع اسم جامع لمعاني سلوك الإنسان الحسنة والسيئة ولا شك أن هذا المعنى لغوي بحت ينصرف على جميع الفرضيات التي يمكن أن يتصورها الإنسان لطالما كانت حدود ذلك الطبع تتصل بالخير والشر، وفي إضافة لفظ الطبع إلي الالتزام يتبين تعريف الالتزام على أي طبع يكون، جاء في أساس البلاغة: هو مطبوع على الكرم، وقد طبع على الأخلاق المحمودة، وهو كريم الطبع والطبيعة والطباع والطبائع، وهو متطبع بكذا وهذا كلام عليه طبائع الفصاحة[2]. لقد ازداد معنى الطبع وضوحا مع ما جاء به الزمخشري بعد أن أوردها معرفة بالإضافة، فجاء التعريف إيجابا لأن المعاني المضاف إليها جميعها معاني حميدة.

الالتزام في اللغة:

قال ابن منظور: اللزوم معروف، والفعل لزم يلزم، والفاعل لازم، والمفعول به ملزوم، لزم الشيء يلزمه لزما ولزوما ولازمه ملازمة ولزاما والتزمه وألزمه إياه فالتزمه، ورجل لزمة يلزم الشيء فلا يفارقه، وقوله عز وجل (فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) أي عذابا لازما لكم[3]. جاء في تاج العروس: لازمه ملازمة ولزاما بالكسر، والتزمه وألزمه إياه فالتزمه أي إذا لزم شيئا لاي فارقه وهو الملازم جدا، وأنشد الجوهري لأبي ذؤيب:

فلم ير غير عادية لزاما كما يتفجر الحوض اللقيف

والعادية: القوم يعدون على أرجلهم أي فجأتهم لزام كأنهم لزموه لاي فارقون ما هم فيه.[4]

مفهوم الالتزام في الأدب:

إن مفهوم الالتزام عند الأدباء أو معني الالتزام عند الأدباء: يعني أن يأخذ الأديب بمنهج معين في أعماله الأدبية كأن يبدع في فن القصة فيلتزمها، أو أن يبدع في فن الشعر فيلتزمه، أو في المقالة أو الخطابة أو في أي جنس آخر من أجناس الأدب، ولا يعني ذلك ألا يفارق الأديب هذا الفن الذي يجيده إلي غيره، وإنما ينطلق في عطائه وفق طريقة سليمة محافظة لا تري فيها عوجا ولا أمتا، ولا تجد فيها مدخلا لناقد، ذلك لأن الأديب وطَّن نفسه علي أن لا يقول إلا الحق، وعلي أن لا تنزع عواطفه إلا إلي ما هو حق وصدق وخير.[5]

هذا هو مفهوم الالتزام عند الأدباء عامة، وعلينا أن نعي أن هذا المفهوم من المفاهيم الحديثة للأدب ولا يوجد مثل هذا التصنيف في صدر الإسلام، وهو موضوع البحث ومن هنا تأتي

الأهمية القصوى للوقوف علي المتغيرات النوعية في هذا المضمار، ومن خلال هذا التعريف لصاحب بدائع الأدب الإسلامي ندرك بوضوح أن الأديب تعاهد نفسه بألا يقول إلا الحق ولا يترك العنان مرسلا لميول نفسه ولا ركون عواطفه بل يتحرى الصدق ويراعيه قولا وفعلا وصمتا، إيماءً وإشارة، ومما أشار إليه صاحب البدائع أن الأديب يلتزم جنسا أدبيا من مجالات الأدب المتعددة فيتقنه أكثر من غيره من الأجناس الأخرى، وهو في ذلك لم يلزم أو يحمل بأية حال إلي مفارقة ومجانبة بقية الفروع الأدبية المتجنسة من الأدب ومتفرعة عنه، بل يعول علي تلك الأجناس التي يجعلها قاعدة لمنطلق أفكاره لتعينه علي بلورة فكرته وإحكام نظرته وإبرام مادته التي هي ثمرة تلك المجالات والفروع الأدبية مجتمعة، وهذا الفكر يماثل التخصص الدقيق الذي تسير عليه المؤسسات التعليمية من الجامعات والمعاهد المتخصصة والجمعيات العلمية في جوانب العلوم الإنسانية عامة، ولا ينفرد الأدب العربي أو الإسلامي بتلك الخاصية دون الآداب الأخرى، ولذلك نجد الجامعات تشتمل علي الكليات وهي تمثل المجالات الأدبية، ونجد الكليات تشتمل علي الأقسام وهي تمثل الأجناس الأدبية المشتملة علي العلوم الإنسانية، وبناء علي ذلك نجد كليات الآداب تشتمل علي أقسام الجغرافيا والتاريخ وعلم النفس والوثائق والمكتبات واللغة العربية والدراسات الإسلامية واللغة الإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات. فإذا سلط الأدباء الضوء علي تلك العلوم من المنظور الشرعي فيكون ذلك كله أدبا إسلاميا، ولذا نجد أن الأدب الإسلامي أكبر من الأدب العربي، ومن هذا المنظور يعبر الأديب العربي بلغته العربية عن مفاهيم اكتسبها عبر لغات أخري غير العربية، ومن هنا تأتي شمولية الأدب الإسلامي وهذا ما نسميه الطابع الأدبي الذي تتضح معه نظرية تكامل الشكل والموضوع لمفهوم الأدب الإسلامي مما يضفي عليه صفة العالمية، لأن كل أديب يتكلم بلغته وقد تكون لدي بيئته عادات وتقاليد فهي عنده طبع أي عادة أو سجية، ولكن عندما يدخلها الأديب عبر الترجمة أو ينقلها من محيطه الأدبي إلى بيئة أدبية أخري بأي أسلوب معرفي فعندما تنسجم مع توجهات الإسلام وتتفق مع الآداب العامة الحسنة فهذا نسميه تطبيع.

طبع الالتزام في الجاهلية:

عرف الجاهليون الالتزام في الأدب منذ نشأة القصيدة فكان الشعر الجاهلي تميز بشيئين هما أساس الالتزام الأدبي الذي بني عليه المتأخرون تعريف الالتزام الحديث، ولذلك كان العرب سباقون إلى هذا النوع من النمط الأدبي، والشيئان هما: أولا: أبحر الشعر العربي الستة عشر التي كان لزاما علي أي شاعر الالتزام بهما في شعره، ثانيا: موضوعات الشعر التي يجب علي الشاعر أن يطرقها في قصيدته أو يتناول بعضها، ومن هنا تعارفت العرب علي اختيار أجمل أشعار العرب وهي التي كانت تتوفر فيها الموضوعات المعنية وأسموها بالمعلقات، ومن هذا المنطلق فإن المعلقات العربية هي خير نموذج للالتزام بأبحرها وموضوعاتها، ونحن في هذا الصدد نقف علي تلك الضوابط الأدبية التي خلدت أشعار العرب في أجمل وأرقي شكلها ومضمونها (المعلقات)، ونتناول بالذكر تلك الموضوعات المتناثرة في بطون المعلقات ونقف على موضوع واحد أو موضوعين من كل معلقة.

معلقة لبيد بن ربيعة العامري:

الفخر بالمجد والنسب والحسب والمروءة والكرم والآباء والإباء وإجارة الضعيف، والقناعة ورجاحة العقل وحفظ حق الجار، والسيادة والريادة، فانظر الي هذا الشاعر العملاق ماذا قال في معلقته الشهيرة على وزن البحر الكامل:

إنا إذا التقت المجامع لم يزل ... منا لزاز عظيمة جشامها
ومقسم يعطي العشيرة حقها ... ومغذمر لحقوقها هضامها
فضلا وذو كرم يعين على الندى ... سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهم ... ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم ... إذ لا تميل مع الهوى أحلامها
فبنوا لنا بيتا رفيعا سمكه ... فسما إليه كهلها وغلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما ... قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشر ... أوفى بأعظم حظنا قسامها
فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت ... وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم ... والمرملات إذا تطاول عامها
وهم العشيرة أن يبطئ حاسد ... أو أن يميل مع العدو لئامها[6]

معلقة عمرو بن كلثوم:

وهذا عمرو بن كلثوم من أصحاب المعلقات يتناول موضوعا مما كانت تباهي به العرب ألا وهو شرب الخمر فنجده ضمنه في معلقته وقدم لها وصفا دقيقا في المجلس الذي تدار فيه الكأس بكل أدب، وكيف أنها تلعب بألباب العقلاء ويبذل البخيل فيها المال سواء بسواء مع أهل الكرم، وكيف كانت الخمر من الملذات التي لا تفارق الشاعر ولو كان في ترحاله عبر المدن وما يبذله فيها من مال لأصحابه، ثم ربط موضوع الخمر بالمنايا والآجال التي هي قدر محتوم وكأن الخمر من واجبات الحياة عند الشاعر، وعمرو بن كلثوم هو أول شاعر جاهلي يفتتح قصيدته بالخمر ويرجع ذلك لكثرة التنصر في قبيلته، ولقد تطرق الشاعر بالهجاء لعمرو بن هند، وهو ملك من ملوك العرب وتعرض لذكر أمه صراحة وهذا كلام لا يليق برجل أديب في مكانة عمرو بن كلثوم، لأن هذا من شين السمعة في حق العوام فكيف يكون الأمر إذا كان المخاطب ملكا، والأبيات التالية من معلقته تبين ذلك انظر إلى قوله من البحر الوافر:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقي خمرو الأندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها ... إذا ما الماء خالطها سخينا
تجور بذي اللبانة عن هواه ... إذا ما ذاقها حتى يلينا
ترى اللحز الشحيح إذا ... أمرت عليه لماله فيها مهينا
صددت الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا
وكأس قد شربت ببعلبك ... وأخرى في دمشق وقاصرينا
إذا صمدت حمياها أريبا ... من الفتيان خلت به جنونا
فما برحت مجال الشرب ... حتى تغالوها وقالوا قد روينا
وإنا سوف تدركنا المنايا ... مقدرة لنا ومقدرينا
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرو بنَ هِنْدٍ ... تُطيعُ بِنا الوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا
تُهَدِّدُ، وتُوعِدُنا، رُوَيداً ... متى كنّا لأُمِّكَ مَقتَوِينَا[7]

معلقة طرفة بن العبد:

تناول الشاعر في معلقته بعض الحكم التي يؤمن بها العرب كما تعودوا من الحياة ومنها نقصان الأيام وأيلولة الإنسان إلى الموت الذي لا يخطئ احدا مهما كانت منزلته بين الناس ملكا كان أو مملوكا، وكأن المنية زمام يجر الجميع خلفه، وإن الأيام كفيلة بذلك، فهي حبلى بالأخبار ولا شك في وصولها فيجب الاعتبار بتلك المواعظ من دروس الأيام، ولقد نعى الشاعر الحياة بذكره الموت وقرب الأجل المحتوم فهو يطوِّف في أفق الرثاء أحد موضوعات الشعر العربي فانظر لقول طرفة من البحر الطويل:

أرى الدهر كنزا ناقصا كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... كالطول المرخي وثنياه باليد
إذا شاء يوما قاده بزمامه ... ومن يك في حبل المنية ينقد
أرى الموت لا يرعى على ذي جلالة ... وإن كان في الدنيا عزيزا بمقعد
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأنباء من لم تبع له ... بتاتا ولم تضرب له وقت موعد
لعمرك ما الأيام إلا معارة ... فما اسطعت من معروفها فتزود[8]

معلقة عنترة بن شداد العبسي:

لقد أوردنا عدة موضوعات من شعر عنترة تناولها في أبيات معدودة، فلقد ذكر الأطلال والديار وخلوها من المحبوب بعد أن أصبحت مهطلا للأمطار ومرتعا للذباب، ثم تناول كرامته وعفته وتحمله الجوع في انتظار المطعم الحلال، وتجاوزه عن صغار الأمور إلا إذا ظلم ظلما يخدش كرامته فوقتها يذيق المعتدي مرارة ظلمه، ثم ذكر عنترة الخمر وشربها واصفا نفسه بالانضباط وبقاء عقله حيث يحافظ على عرضه الوافر ولا سبيل لانتهاكه من تعاطيه الخمر، إذ أن ذلك لا ينقص من مكانته شيئا، فأنظر إلى شعره من البحر الكامل:

ولقد مررت بدار عبلة بعدما ... لعب الربيع بربعها المتوسم
سحا وتسكابا فكل عشية ... يجري عليها الماء لم يتصرم
خلا الذباب بها فليس ببارح ... غردا كفعل الشارب المترنم
أثني علي بما علمت فإنني ... سهل مخالقتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل ... مر مذاقته كطعم العلقم
ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به لذيذ المطعم
ولقد شربت من المدامة بعدما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلم
فإذا شربت فإنني مستهلك ... مالي وعرضي وافر لم يكلم[9]

معلقة امرىء القيس:

في هذه الأبيات لقد مزج الشاعر بين موضوعين وهما الكرم عندما ذبح مطيته للعذارى وفي آن واحد يتغزل بالمحبوبة كغيره من شعراء العرب من أصحاب المعلقات، وذكر النسيب والتشبب بالنساء وهو واحد من موضوعات الشعر العربي، وجاءت معلقة إمرىء على البحر الطويل إذ يقول:

وَيومَ عَقَرْتُ للعَذَارَى مَطِيَّتي ... فَيا عَجَباً مِنْ رَحْلِها المتَحَمَّلِ
ويا عَجَباً مِنْ حَلّها بَعدَ رَحْلِها! ... ويَا عَجَباً للجازِرِ المُتَبَذِّلِ
ويَومَ دَخَلتُ الخِدْرَ، خِدْرَ عُنَيزَةٍ ... فقالتْ: لَكَ الوَيلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي
َقولُ، وَقَدْ مالَ الغَبِيْطُ بنا مَعاً: ... عَقَرْتَ بَعيرِي، يا امَرأ القيسِ، فانْزِلِ[10]

معلقة زهير بن أبي سلمى:

نظم الشاعر في الأطلال وظعن المحبوبة وارتحالها، وهما موضوعان يذكرهما الشاعر الجاهلي عادة في مفتتح قصيدته، وهذا ما فعله زهير إذ يقول من البحر الطويل:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم
ديار لها بالرقمتين كأنها ... مراجع وشم في نواشر معصم
وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلأيًا عرفت الدار بعد توهم
بكرن بكورًا واستحرن بسحرة ... فهن ووادي الرس كاليد للفم
فلما وردن الماء زرقا جمامه ... وضعن عصي الحاضر المتخيم
وفيهن ملهى للطيف ومنظر ... أنيق لعين الناظر المتوسم[11]

قال الشاعر أبياتا في المدح والسلم هي من أعظم ما قيل في الجاهلية، ومدحه لوحة تسير على قدميها ولا يحتاج إلى شرح، يقول زهير:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
مينًا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسًا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما: إن ندرك السلم واسعًا ... بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معد هديتما ... ومن يستبح كنزًا من المجد يعظم
وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم[12]

معلقة النابغة الذبياني:

هذا الشاعر الذبياني من فحول شعراء العرب وله معلقة سارت بها الركبان وهذا جانب منها تناول فيها أحوال النجوم وهطول الأمطار ليلا ببرقها وريحها وظلامها وأثواب السحب وأستاره تغطي السماء ويلوح البرق من خلالها في منظر جميل يأسر النفس وكانت العرب ترتاح له لأنه يبشر بالخير الكثير والكلأ الوفير، ومن جانب الخير إذا ناح الحمام في تلك المروج في ظلال الأمطار تذكر الشاعر محبوبته أم عمار وألمت به الذكريات لأنه كشأن العشاق في بادية الجزيرة العربية، ولا يغيب عنه منظر المحبوبة وخيالها لا يبارح ذهنه وهي تظعن من دار إلى دار تجتاب الأرض وركابها الميمون تكتنفه الأمطار التي تسري ليلا تحت هيجان الرياح حتي يسفر الصبح عن تلك الليلة المطيرة فيكشف الضياء عن لوحة جميلة من لوحات الطبيعة التي تغنى بها الشاعر، على لحن البحر البسيط، فأنظر ماذا قال النابغة الذبياني:

أَقُولُ والنَّجْمُ قَدْ مَالَتْ أَوَاخِرُهُ ... إلى المَغِيبِ: تَثَبَّتْ نَظْرَةً حَارِ
أَلْمَحةٌ مِنْ سَنَا بَرْقٍ رَأَى بَصَري، ... أَمْ وَجْهُ نُعْمٍ بَدَا لي، أَمْ سَنَا نَارِ
بَلْ وَجْهُ نُعْمٍ بَدَا، واللّيلُ مُعْتَكِرٌ، ... فَلاَحَ مِنْ بَيْنِ أَثْوَابٍ وَأَسْتَارِ
إذا تَغَنَّى الحَمَامُ الوُرْقُ هَيَّجَني، ... وإنْ تَغَرَّبْتُ عَنْهَا أُمِّ عَمَّارِ
تَجْتَابُ أَرْضاً إلى أَرْضٍ بِذِي زَجَلٍ ... ماضٍ على الهَوْلِ، هادٍ غيرِ مِحْيَارِ
إذا الرِّكَابُ وَنَتْ عَنْهَا رَكَائِبُها، ... تَشَذَّرَتْ بِبَعِيدِ الفَتْرِ خَطَّارِ
باتتْ لَهُ لَيلَةٌ شَهْبَاءُ تَسْفَعُهُ ... بِحَاصِبٍ ذَاتِ إشْعانٍ وإمْطَارِ
وباتَ ضَيفاً لأُرطاةٍ، وأَلْجَأَهُ، ... مَعَ الظَّلاَمِ، إلَيها وابِلٌ سَارِ
حتى إذا ما انْجَلَتْ ظَلْماءُ لَيْلَتِهِ ... وأَسْفَرَ الصّبحُ عَنْهُ أَيَّ إسْفَارِ[13]

لقد تناولنا في هذا المبحث ضوابط القصيدة العربية وحدودها المتعارف عليها تطبيقيا بين العرب ورأينا أن الالتزام بأبحر الشعر والموضوعات الشعرية هو الأساس الذي قام عليه الإلتزام الأدبي في الشعر الجاهلي، ولذلك وجدنا أصحاب المعلقات قد اشتركوا في اختيار بحر واحد، ولقد جاءت معلقات كل من إمرىء القيس، وزهير، وطرفة بن العبد، على وزن البحر الطويل لسعة تفعيلاته وتمكنها من استيعاب المعاني الكثيرة، بينما اشتركت معلقتا لبيد وعنترة في وزن البحر الكامل لسعة تفعيلاته أيضا، بينما كانت معلقة النابغة على وزن البحر البسيط، ومعلقة عمرو بن كلثوم على وزن البحر الوافر.

أما موضوعات الشعر في هذه المعلقات فقد شملت جل الموضوعات التقليدية للشعر العربي الجاهلي، وتمثلت في ذكر الأطلال، والنسيب وهو التشبب بأحوال النساء، وذكر المحبوبة وظعنها وترحالها، وذكر المطر والأنواء، والفخر، والمدح، والهجاء، والرثاء، وبذلك يثبت لدينا بما لا يدع مجالا للشك بأن الإلتزام الذي عرف حديثا بين أوساط الأدباء قد كان موجودا في العصر الجاهلي ومتأصلا بين الشعراء وهم قادة الأدب في ذلك الوقت.

طبع الالتزام في أدب الإسلام:

مفهوم الالتزام في الشرع:

أما مفهوم الالتزام عند المسلمين نابع من تمسك الفرد بالكتاب الكريم والسنة النبوية، وعليه يجب أن يكون الالتزام بجميع ما جاء به الإسلام من تعاليم، وفي شرح العمدة: من لم يلتزم جميع الإسلام فإنه يُقاتل، وأيضا فإن الالتزام قد لا يحصل لقوله تعالي: (فإن تابوا) فان التائب من الكفر لا يكون تائبا حتى يقر بجميع ما جاء به الرسول ويلتزمه.[14]

ولذا أصبح لزاما علي المرء أن يلتزم في كلامه الصدق وما كان موافقا للكتاب والسنة، وأن يعي حقيقة ما يقول، ولذا أورد صاحب منهاج السنة قوله: الماهية التي يعنيها المتكلم بلفظه، دلالة لفظه عليها دلالة مطابقة، ودلالته على ما دخل فيها دلالة تضمُّن، ودلالته على ما يلزمها وهو خارج عنها دلالة الالتزام.[15]

إن ما أوردناه من أقوال العلماء والباحثين يركز علي الالتزام ويبين أهميته، ونعرض هنا لما قاله صاحب التفسير الكبير عن الالتزام لنختم به هذه التعريفات التي لا تحصي في هذا المجال، يقول صاحب التفسير الكبير: اعلم أن المؤمن إذا آمن بالله فقد التزم شرائع الإسلام والإيمان وحينئذ يجب عليه أمران أحدهما أن يصبر على ذلك الالتزام وأن لا يرجع عنه وأن لا ينقضه بعد ثبوته والثاني أن يأتي بكل ما هو من شرائع الإسلام ولوازمه[16].

الالتزام هو التطبيق العملي والقولي للموجهات الإسلامية من الأحكام الشريعة ومعاملاتها التي أقر بها الأدباء والكتاب، والالتزام هو المجال العملي لتطبيق المثالية والواقعية، إذ أن الواقعية تقوم على المثالية والالتزام يقوم عليهما معا، إذا فالالتزام إتباع لما جاء به الحق جل وعلا في التنزيل من الوحي القرآني، ولذا قال الله تعالي: (اتبعوا ما أنزل الله) أي (التزموا) بالقبول والعمل قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، ألفينا وجدنا، وقال الشاعر:

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا

وغاية الفساد في الالتزام أن يقولوا نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون فقروا على التزامهم هذا إذ هي حال آبائهم .[17]

أما قول الشاعر آنف الذكر فأوله:

أريت أمرا كنت لم أبله ... أتاني فقال اتخذني خليلا
وألفيته حين جربته ... كذوب الحديث سروقا بخيلا
فذكرته ثم عاتبته ... عتابا رفيقا وقولا جميلا
فألفيته غير مستعتب ... ولا ذاكر الله إلا قليلا
ألست حقيقا بتوديعه ... وإتباع ذلك صرما طويلا[18]

أنظر إلي الشاعر كيف تمثل بالشعر أمر الالتزام بالمعني والمضمون، وإن كان هذا الشاعر قد تمثل بالمعني تلميحا فنجد من الشعراء قد جاء بلفظ الالتزام تصريحا فانظر إلى ما قاله سبط بن التعاويذي:

وأجتنب الذبائح لا بحكم ... الضرورة بل بحكم الالتزام
وأترك طائعا من غير عذر ... موافقة لكم شرب المدام
إلى أن تجمع الأيام شملي ... بكم ما بين باطية وجام[19]

لقد ذكر الشاعر والأديب حكم الالتزام في الأبيات آنفة الذكر، والالتزام هو خلاصة الأدب والأخلاق لأن صاحبه وملتزمه يبين مدي قربه وبعده من الشرع الإسلامي المتمثل في الكتاب والسنة بعد أن يؤمن به ويقر به إقرارا تاما. وفي كتاب توحيد الألوهية: إن الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة، كما أن لفظ الإقرار مأخوذ من قر يقر وهو قريب من آمن يأمن، لكن الصادق يطمئن إلى خبره والكاذب بخلاف ذلك، كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة فالمؤمن دخل في الأمن كما أن المقر دخل في الإقرار ولفظ الإقرار يتضمن الالتزام.[20]

إن ما ذكرناه في بيان الالتزام يكفي لكي يفهم القارئ ما نورده في هذا البحث المتواضع من تطبيقات في هذا الجانب، ولما كانت المثالية والواقعية والالتزام يتعلمها الناس من مدرسة نبينا محمد، فلقد وقعت متغيرات أحدثتها البشرية من بعد رسول الله في جانب الإلتزام الذي كان شموليا واسعا فأصبح خاصاً ضيقا، والإلتزام الخاص هنا أصل من فرع، فالأصل قديم مليئ بالطباع النبيلة، والفرع محدث مشحون بالأخطاء الذليلة، ومن هنا جاء الشد والجذب بين الماضي والحاضر، ولا نجد ماضيا للبشرية أبلغ من سبرة الصحابة في صورها الأدبية التي أصبحت لوحة ناطقة بفنون الأدب والإنسانية فهي الصورة الملهمة التي انبرى لهام خدام الأدب وصناع المجد فأخرجوها بشتى صور الإبداع ومجالات العلوم وأجناس الأدب الإسلامي، فركَّبوا منها بناء أدبيا هو بيت الطبائع المحمودة الذي تأوي إليه البشرية جمعاء يربط بينها أدب الإسلام على اختلاف اللغات والعرقيات بمشاربها الثقافية والعلمية المختلفة مع استصحاب البرهان الموضوعي لكل نظرية، وفي المعجم الوسيط: النظرية قضية تثبت ببرهان، وفي الفلسفة طائفة من الآراء تفسر بها بعض الوقائع العلمية أو الفنية، ونظرية المعرفة هي البحث في المشكلات القائمة على العلاقة بين الشخص والموضوع أو بين العارف والمعروف وفي وسائل المعرفة فطرية أو مكتسبة.[21] والمطلوب لنظرية الأدب الإسلامي أن تقوم علي حكم شرعي مصدق بالدليل من الكتاب والسنة لتكون

منهاجا ملموسا في الحياة العقلية والمادية: لاستكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة[22]. ولما كانت هذه هي الروح النظرية المطلوبة في الأدب الإسلامي وما ينطوي علي ذلك من إصلاح للنفس البشرية: لهذا خصصوا اسم الفقه بالعلوم النظرية[23]. ويمثل الشعر مصدرا للإلتزام لما أضفاه الخليفة الأول أبو بكر الصديق لذلك المعنى الأدبي، وأنطبق عليه من معاني الشعر ما أورده صاحب العقود الدرية:

وإذا تكـــــلم لا يراجع هيبة	وسكينة وكلامـــــه إبرام
وتراه يصمت لا لعـــــي دائما	إلا لعلـــــــم يقتنى ويرام
ألـــــقى عليه مهابة من ربه	فخطابه الإجـــــلال والإكرام
وأمات من بدع الضلال عوائد	لا يستطيع لدفعها الصمصام
أس الفضائل والذي لا تهتدي	لفنونه وعلومـــه الأوهام
وأناله رب السمـــــوات العلا	فـــــي العلم سبقا ما إليه مرام
إن المنزه ربنا سبحـــــــانه	يقضي بما تأتي به الأحكام[24]

لقد قيلت هذه الأبيات في أبي بكر الصديق ولا تحتاج هذه اللوحة إلي تفسير فهي صورة فنية ناطقة تستهوي كل أديب طبعه الزوق السليم، فقد قدم الصديق أنموذجا للالتزام، استهوي الشعراء والأدباء فهذا خفاف السلمي يقول في أبي بكر:

ليس لحي فاعلمنـــــــه بقا	وكـــــل دنيا أمرها للفنا
والملك في الأقوام مستودع	عارية فالشـــــرط فيه الأدا
والمـــــرء يسعى وله راصد	تندبه العين ونار الصـــــدا
إن أبا بكـــــر هو الغيث إن	لـــم تزرع الجوزاء بقلا بما
تالله لا يدرك أيـــامه	ذو مـــــئزر ناش ولا ذو ردا
من يســـــع كي يدرك أيامه	جهدا شـــــذ بأرض فضا[25]

وهذا ابن ندبة السلمي جعل من أبي بكر مجالا أدبيا ليحول معاني أخلاقه إلي جنس أدبي رفيع وهو الشعر الإسلامي الذي ينبض بالمدح، ومن ما هو معلوم أن المدح يتناول دائما مكارم الأخلاق من جميل الخصال، وهو ما يسعي الأدب الإسلامي لبلورته وجعله تاجا أدبيا مرصعا بألوان الأدب وفنونه الجميلة. ومن هنا نعلم أن الأدب الإسلامي لا يمكن أن يعبر عن روح الإسلام إذا كان أدبا نظريا محضا وبمنأى عن التطبيق العملي أو منفصلا عنه، وذلك في حق أفراد المجتمع الإسلامي عامة وعلي حكامه خاصة فيما يجب عليهم من ترجمة حقيقية للأدب النظري إلي واقع عملي ملموس برعاية ورغابة تحافظ علي الشكل الأدبي والمضمون الأخلاقي، وبذا يُعلم بأن التطبيق العملي للنصوص النظرية مركب مزج من عقيدة وإيمان وقول وعمل، وإن الكاتب الموهوب الذي جمع بين هذه الصفات يستطيع أن يستشف المعاني من وراء هذه المفاهيم ليرسلها إلي القلوب إنشاء أدبيا مؤثرا يحافظ علي ديمومة التلازم بين تلك القيم وبين روح الإبداع الفني الجميل في طابع أدبي فريد.

ولقد توالت معاني الشعر في التزام قادة الأدب بالألتزام ولله در المتنبئ عندما قال:

فأنت حسام الملك والله ضارب ... وأنت لسواء الدين والله عاقد
له من كريم الطبع في الحرب منتضد ... ومن عادة الإحسان والصفح عامد
ولما رأيت الناس دون محله ... تيقنت أن الدهر للناس ناقد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها ... مصائب قوم عند قوم فوائد
وكل يرى طرق الشجاعة والندى ... ولكن طبع النفس للنفس قائد
أحبك يا شمس الزمان وبدره ... وإن لامني فيك السهى والفراقد
وذاك لأن الفضل عندك باهر ... وليس لأن العيش عندك بارد[26]

فهذا هو أمير الشعراء في زمانه (المتنبئ) يعيد رسم لوحة استعار بياناتها من ماض أمة الإسلام في الحقبة الأولي (صدر الإسلام) وإن كانت قصيدته في المدح في العصر العباسي، وإن الممدوح يقاس دائما إلي ما هو أكبر منه، انظر كيف كانت تلك الحقبة الثمينة نورا يستمد منه الشعراء معالم الطريق، فكانت مصدرا للإلهام في إرساء معالم الأدب الإسلامي بأجناسه المتعددة.

لقد التزم أبو بكر الصديق بتوجيه جيش أسامة إلى الشام فخرج أمير المؤمنين حافيا وقائد الجيش أسامة راكبا فكان ذلك تعبيرا صادقا لا يخل بالحزم ولا يقلل من الشأن على الرغم من فارق السن بين أسامة ستة عشر عاما، وأبي بكر ستون سنة، وفي هذا قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى صفحات الجو وهو وضيع[27]

انظر إلى خلق التواضع فكم جلب الحكمة التي تخاطب العقل الراجح وتستهوي اللب الناجح، فهذه معاني الأشعار تلتف حول الإلتزام ملهمة طباع الأدب الإسلامي، فكم لامس قول المتنبئ تلك المعاني السامية:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حوله متلاطم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منهم زمازم
تجمع فيها كل لسن وأمة ... ما تفهم الحداث إلا التراجم
لله وقت ذوب الغش ناره ... فلم يبق إلا صارم أو ضبارم
على قدر أهل العزم وقفت وما في الموت شك لواق ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمي هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما ... مفاتحه البيض الخفاف الصوارم
ولست مليكاً هازماً لنظيره ... ولكنك التوحيد للشرك هازم
تشرف عدنان به لا ربيعة ... وتفتخر الدنيا به لا العواصم
ألا أيها السيف الذي لست مغمداً ... ولا فيك مرتاب ولا منك عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا ... وراجيك والإسلام أنك سالم[28]

انظر إلي هذه اللوحة العظيمة من لوحات الشرف التي جاءت نظما قلما تجود الآداب الإسلامية بمثله، وذلك عندما حوَّل المتنبئ صفات أدبية محفوظة لأبي بكر كأول خليفة، فجعلها مدحا لسيف الدولة في العصر العباسي، وهكذا المدح يلحق الصغير بالكبير في ثوب أدبي بليغ، ولقد كان لكبار الشعراء في صدر الإسلام دور بارز في أرساء معاني الإلتزام، انظر كيف صور الشاعر المخضرم الصحابي الجليل لبيد بن ربيعة العامري ذلك الزهد في كل ما هو فان، فأنشد مرثيته في أخيه أربد فقال:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وقد كنت في أكناف دار مضنة ... ففارقني جار بأربد نافع
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا ... فكل فتى يوماً به الدهر فاجع
وما النَاسُ إِلاَّ كالدِّيارِ وأَهْلِها ... بها يَوْمَ حَلُّوهَا وغَدْواً بَلاَ قِعُ
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
وما البرُّ إِلاَّ مُضْمَرَاتٌ منَ التُّقَى ... وما المالُ إِلاَّ مُعْمَرَاتٌ وَدَائِعُ
وما المالُ والأَهْلُونَ إِلاَّ وَدَائِعٌ ... ولا بُدَّ يَوْماً أَنَّ تُرَدَّ الوَدَائِعُ
فأصبحت مثل السيف أخلق جفنه ... تقادم عهد القين والنصل قاطع
فلا تبعدن إن المنية موعد ... علينا فدان للطلوع وطالع
أتجزع مما أحدث الدهر للفتى ... وأي كريم لم تصبه القوارع
لَعَمْكَ ما تَدْرِى الضَّوَارِبُ بالحَصَى ... ولا زاجِرَاتُ الطَّيْرِ ما اللهُ صانِعُ![29]

لا شك أن القصيدة جاءت مشبعة بالمعاني الإسلامية ومعلوم أن لبيد بن ربيعة كان من كبار شعراء المعلقات في الجاهلية، فأستبدل المضمون بأدب إسلامي وأبقى علي شكل الشعر كما كان في الجاهلية، وفتناسب الشكل والمضمون تناسبا عكسيا، وأنشد أبو بكر الصديق شعراً للبيد في رثاء أخيه أربد، في قوله:

لعمري لئن كان المخبر صادقاً ... لقد رزئت في حادث الدهر جعفر
أخ لي، أما كل شيء سألته ... فيعطي، وأما كل ذنب فيغفر

فقال أبو بكر رضوان الله عليه: ذلك رسول الله، لا أربد بن قيس، لما ذكر البيت الثاني أما كل شيء سألته فيعطي، وأما كل ذنب فيغفر أي يسامح، فكان أبو بكر بذلك أديبا وناقدا في الأدب الإسلامي، وقد رثى لبيد (أربد) بعد ذلك بقصيدته التي ذكرناها.[30]

لقد جمع أبو بكر بين الأدب والبلاغة والنقد في وقت لم يكن للتصنيفات الأدبية ذكر، وهذه الثلاثة لا ينفك بعضها عن بعض فالبلاغة هي جزء أصيل من الأدب كيف لا وإن علم المعاني المعروف بعلم الأسلوب يقف سياجا قويا لمعاني الأدب نقده وبلاغته معبرا عن الحقيقة والواقع وفي مضماره يصول ويجول الأدباء، وعلم المعاني هو ثالث أركان البلاغة إلي جانب البيان والبديع، وفي علم البيان نجد الحقيقة والمجاز ولولا الحقيقة لما كان المجاز، والكناية إحدى مباحث البيان نجدها تحتمل في مراميها ومقاصدها الحقيقة والمجاز، وأما البديع فهو من علم الأسلوب الذي

هـو علـم المعـاني، فـكل هـذا يـدل عـلي أن الأدب الإسـلامي وعـاء جامـع يشـمل النقـد والبلاغـة والأدب في تصنيفـات اليـوم، بمجالاتهـا وفروعهـا، وهـذا يؤكـد بـكل جـلاء عمـق التطبيـق الأدبي للطبـاع والأخـلاق فهـذا هـو الأدب في الإسـلام تنبثـق ألوانـه وتتسـع معانيـه وتتعـدد فروعـه وتنـداح دائرتـه بـرؤى ثابتـة ومفاهيـم راسـخة قوامهـا الإلتـزام بالـشرع الإسـلامي.

قَالَـتْ أسـماء بنـت أبي بكـر لَـمّا خَـرَجَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ وَأَبُـو بَكْـرٍ رَضِيَ اللّـهُ عَنْـهُ، فَمَكَثْنَـا ثَـلَاثَ لَيَـالٍ وَمَـا نَـدْرِي أَيْـن وَجْـهُ رَسُـولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ حَتّـى أَقْبَـلَ رَجُـلٌ مِـنْ الْجِـنّ مِـنْ أَسْـفَلِ مَكّـةَ، يَتَغَنّـى بِأَبْيَـاتٍ مِـنْ شِـعْرٍ غِنَـاءَ الْعَـرَبِ، وَإِنّ النّـاسَ لَيَتّبِعُونَـهُ يَسْـمَعُونَ صَوْتَـهُ وَمَـا يَرَوْنَـهُ حَتّـى خَـرَجَ مِـنْ أَعْـلَى مَكّـةَ وَهُـوَ يَقُـولُ:

جَـزَى اللّـهُ رَبّ النّاسِ خَـيْرَ جَزَائِهِ	رَفِيقَـيْنِ حَلّا خَيْمَتَيْ أُمّ مَـــعْبَدِ
هُمَـا نَـزَلَا بِالْبِـرّ ثُـمّ تَـــرَحّلَا	فَأَفْلَـحَ مَـنْ أَمْسَى رَفِيـقَ مُـحَمّدِ
لِيَـهْنِ بَنِـي كَعْـبٍ مَقَامَ فَتَاتِهِمْ	وَمَقْـعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَـــرْصَدِ
فَيَالَقُصَيّ مَـا زَوَى اللّهُ عَنْـكُمْ	مِـنْ فِعَالٍ لَا يُـــجَازَى وَسُؤْدُدِ
سَـلُوا أُخْتَكُمْ عَـنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا	فَإِنّكُـمْ إنْ تَسْـأَلُوا الشّـاةَ تَشْـهَدْ
دَعَـاهَا بِشَاةٍ حَـــائِلٍ فَتَحَلّبَتْ	لَـهُ بِـصَرِيحِ ضَـرّةُ الشّـاةِ مُزْبِـدِ
فَغَـادَرَهَا رَهْـنًا لَدَيْهَا بِحَـــالِبٍ	يُـرَدّدُهَا فِـي مَصْدَرٍ ثُمّ مَوْرِدِ[31]

فهـذا الشـعر المحكـم الـذي أوردنـاه مـن قـول رجـل مـن الجـن، ومـا اعترفـت الجـن بهـذا الفضـل لشـخصين (نبينـا الكريـم والصدِّيـق) هـما مـن سـادات العـرب وأشرافهـا، إلا لأن الجـن قـد ألفـت خصالهـما وأخلاقهـما، فـلا فـرق بـين طباعهـما في الجاهليـة والإسـلام إلا بمـا أضافـه الديـن الإسـلامي الجديـد إليهـما مـن آداب وأخـلاق حميـدة، فـكان ذلـك نـور عـلي نـور ويهـدي اللـه لنـوره مـن يشـاء، لقـد وقـع قـول الجنِّـي مـن الشـعر موقعـا عميقـا عـلي مسـامع العـرب، لأنـه أسـهم في حـل مشـكلة أربكـت العـرب وعجـزت أن تتوصـل لحلهـا عـبر جميـع الطـرق والوسـائل المتاحـة بمـا في ذلـك أدب الكهانـة الـذي كان واحـدا مـن مجـالات الأدب في الجاهليـة وكانـت تتعامـل بـه الجـن، ولكـن الجـن مـن خلـق اللـه فكـسر بهـم عـادة العـرب المظلمـة، لينفتـح بـاب جديـد مـن أبـواب الأدب الإسـلامي،...انظر كيـف كان الإسـلام ملهـما لـلأدب المنظـوم عندمـا أصبحـت الجـن مصـدرا مـن مصـادر الأدب والأخـلاق بعـد التكليـف الشرعـي الـذي جـاء بـه الديـن الحنيـف في قولـه تعـالي (ومـا خلقـت الجـن والإنـس إلا ليعبـدون)، فالجـن مكلفـون بمـا كلـف اللـه بـه الإنـس، وأن نبينـا محمـد أرسـله اللـه تعـالى للثقلـين الإنـس والجـن.

لقـد كان نبينـا محمـد محـل إعـزاز وإكـرام بـين قومـه، فهـذا عمـه أبـو طالـب ينظـم فيـه أجمـل أشـعار العـرب عـلي الرغـم مـن أنـه لم يكـن عـلي دينـه، ولكنـه تباين الأخـلاق الـذي أمـلاه الإلتـزام الأدبي، فأنشـد أبـو طالـب قائـلا:

وأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الغَـــمامُ بوَجْهِهِ ... ثِمــالُ اليَتَامَـى عِصْـــمَةٌ للأَرَامِـلِ
يَلُـوذُ بـه الهُـلاَّكُ مِـــن آلِ هاشِـمٍ ... فَـهُمْ عـــندَهُ فـــي نِعْمَةٍ وفَواضِلِ
وأَصبـحَ فِينـا أَحمدٌ فـــــي أُرُومَـةٍ ... تُقَـصِّرُ عنـــها سَـوْرَةُ المُـــــتَطاوِلِ
حَلِيـمٌ رَشِـيدٌ عـادِلٌ غَـيْرُ طـــــائِشٍ ... يُـوالِي إلاهـاً ليـسَ عنـــــــه بغافِلِ
كَذَبْتُـمْ وبيـتِ اللـهِ يُبْـزَى محـــمّدٌ ... ولمّـا نُـصرَّعْ حـــــولَهُ ونُـقاتَلُ
كذبتـم وبيـت اللـه نـترك احـــمداً ... ولمّـا نقاتل دونـــــــــه ونناضـل
ونُسـلمُهُ حتَّـى نُصـرّعَ حـــولَهُ ... ونذهَلَ عـن أبـنائنا والحـــــلائلِ
أعـوذُ بـربِّ النَّـاسِ مـن كلِّ طاعـنٍ ... عَلَيْنا بـسوءٍ أوْ مُلـــــــحٌ بباطلِ
ومـا تـركُ قـوم لا أبالـــــك سيّداً ... يحـوطُ الذِّمـارَ غيـر ذربٍ مُـواكلِ
وقـد علِمـوا أنَّ ابنَنَـا لا مُـــكذَّبٌ ... لدينـا ولا يُعـــــنى بقـولِ الأباطلِ
وإنـا لعمر الله إن جـد جـــــدنا ... لتلتبسـن أسيافـــــنا بالأمـاثل[32]

فالـذي قالـه أبـو طالـب في رسـول اللـه مـن المـدح هـو الطبـع الخلقـي والأدب الربـاني الـذي جبـل اللـه عليـه نبيـه محمـدا فالطبـاع الحسـنة لا تتحـول ولا تتبـدل بـل تـزداد وضوحـا وجـلاء مـع مـر الأيـام، فهـذا أبـو طالـب يسـوم سـادات العـرب مـن آل هاشـم سـدنة بيـت اللـه الحـرام وأصحـاب الـشرف والرياسـة يسـومهم أشـد الهجـاء فيصفهـم صادقـا بالكـذب فـداء لرسـول اللـه، أبنائهـم والحلائـل بقولـه:

إذا اجتمعـتْ يومـاً قريـشٌ لمفـــخر ... فـعبدُ منـافٍ سرُّهـا وصـــــميمُها
وإنْ حُصِّلـتْ أشرافُ عبـدِ منافِهـا ... فـــفي هاشـمٍ أشرافُهـا وقـــــديمُها
وإنْ فَـخَرتْ يومـاً فـإنَّ مـــــحمَّداً ... هـو المصطفَـى مـن سرِّهـا وكَريمهـا
تداعـتْ قـريشٌ غَثُّهـا وسَمـــــينُها ... عَلَيْنـا ولم تظهـرْ وطاشـتْ حُلومُهـا
وكـنَّا قـديماً لا نقـرُّ ظُـــلامَةً ... إذا مـا ثَنَـوا صُعْـرَ الخُـدودِ نُقيمُهـا[33]

هـذه لوحـة إقـرار بالـشرف وقـد أظهـرت نبينـا محمـد صـلي اللـه عليـه وسـلم ممدوحـا مـن صفـوة قريـش أجمعهـا فـما زالـت نقشـا في صفحـات الزمـان تـزداد جـلاء ووضوحـا بمـر الليـالي والأيـام، تضـئ طريـق الأدبـاء ممـن أراد أن يقـرأ تاريـخ الأخـلاق مـن أمجـاد العـرب وسـادات الكلـم وأربـاب الفصاحـة والبيـان والبلاغـة. ونلاحـظ هنـا أن الطبـع الحميـد لنبينـا جـرى عـلى لسـان رجـل في الجاهليـة غـير مسـلم، ومـع ذلـك أضيـف لطبـاع المسـلمين لأن شـعر أبي طالـب كان لوحـة أدبيـة مقبولـة في الجاهليـة والإسـلام، مثلـما كانـت أشـعار الجـن آنفـة الذكـر لوحـة مقبولـة في الجاهليـة والإسـلام كذلـك، ونخلـص مـن هنـا إلى أن تأطـير الطبـاع عـلى الأدب الإسـلامي جـاء مثبتـا مـن آداب لبيئـات متعـددة، جمـع بينهـا معنـى الأخـلاق الرشـيدة الكريمـة لتمثـل جوهـرا لجميـع فـروع وأشـكال الأدب الاسـلامي، فـكان الطبـع السـليم قاسـما مشـتركا لأدب الإلتـزام في الإسـلام.

أمـا حَسّـانَ بْـنَ ثَابِـتٍ لَـمّا بَلَغَـهُ شِـعْرُ الْجِنّـيّ وَمَـا هَتَـفَ بِـهِ فِي مَكّـةَ، لم يتمالـك نفسـه حتـى فجـر ينبـوع الشـعر بـين الأنـس مجيبـا الجـن، فجـري شـعره نهـرا مـن النظـم يتدفـق بالمعـاني الـثرة إلى يومنـا هـذا عندمـا مـدح الرسـول الكريـم وصاحبـه أبي بكـر فقـال:

قَدْ خَـــــــابَ قَوْمٌ عَنْهُمْ نَبِيّـهُمْ	وَقَدْ سُرّ مَـــنْ يَسْرِي إلَيْهِم وَيَغْتَدِي
تَرَحّلَ عَنْ قَـــــوْمٍ فَضَلّتْ عُقُولُهُمْ	وَحَــلّ عَــلَــى قَــوْمٍ بِنُـورِ مُجَـدّدِ
هَـدَاهُمْ بِـهِ بَعْدَ الضّـــــــلَالَةِ رَبّهُمْ	وَأَرْشَـدَهُمْ مَــنْ يَتْبَعُ الْـــــحَقّ يَرْشُدْ
وَهَـلْ يَسْـتَوِي ضُـلّالُ قَــوْمٍ تَسَـفّهُوا	عِمَـــــــايَتَهُمْ هَـادٍ بِهَا كُـــلّ مُهْتَدِ
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْـهُ إلَـــــى أَهْـلِ يَثْـرِبِ	رِكَابُ هُـــــــدًى حَلّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ
نَبِـيّ يَـــرَى مَـا لَا يَـرَى النّـــاسُ حَوْلَـهُ	يَــتْلُو كِتَـــابَ اللّهِ فِـــــي كُلّ مَشْهَدِ
وَإِنْ قَـالَ فِي يَـوْمٍ مَـــــــقَالَةَ غَائِبٍ	تَصْدِيقُـهُ فِي الْيَـوْمِ أَوْ فِـــي ضُحَى الْغَدِ
لِيَـهْنِ أَبَا بَكْـرٍ سَـعَـــــــــادَةَ جَدّهِ	بِصُـــحْبَتِهِ مَـــنْ يُسْعِدُ اللّهَ يَسْعَدْ[34]

كل هـذا الشـعر أدب إسـلامي يمثـل لوحـة شرف نـادرة لا يجـود بمثلهـا الزمـان، تضافـرت فيهـا أخـلاق رجلـين مـن الإنـس والجـن، أمـا الـذي مـن الإنـس فهـو الصحـابي الجليـل حسـان بـن ثابـت رضي اللـه عنـه، فعندمـا سـمع إنشـاد الجنـي وهـو يثنـي عـلي رسـول اللـه وصاحبـه أبي بكـر بالمـدح، فطربـت لذلـك نفسـه وهاجـت قريحـة الشـعر في قلبـه، وقـد رضي بسـلامة رسـول اللـه، فـرد عـلي صـوت الشـعر جميـلا بجميـل هتافـا بهتـاف قافيـة بقافيـة سـعدا بسـعد، فجـاءت القصيـدة مزجـا واحـدا بشـعور واحـد وأدب واحـد وأخـلاق واحـدة وطبـع واحـد، دفاعـا عـن رسـالة واحـدة وهـي رسـالة الإسـلام، وفي نفـح الطيـب درر مـن الشـعر مـما قيـل في أبي بكـر مـما قالـه فيـه رسـول اللـه صـلي اللـه عليـه وسـلم، وذلـك مـا ترجمـه وسـطره ابـن جابـر عندمـا قـال:

وقـال رســول اللـه إن أمنَّكـم	عــلـيَّ أبــو بـــكر وأوفى بموعـد
فصـدق إذ كـــذبتم وأطـاع إذ	عصيتـم ووافـاني مـــــوافاة مسـعد
ولـو أننـي مــن أمتـي كنـت آخـذا	خليـلا تـــــولى خلـــتي وتـوددي
لـكان أبـو بكـر ولـكن أخـوة في	الاسـلام مهـما تنـــــقص الـناس تزدد
فلـما أراد اللـه قبـــض نبيـه	وصـار إلى دار النعيـم المـخلد
تقـدم في نيـل الخـــافة بعـده	بإجماعهـم لا بالحـسام المـهند
فـآب بحمـد منهـم غـير قـــاصر	ومـن يتبـع الإنصـف والحـق يحـمـد
ومـا أشـبه الصديـق في الفضـل	مشبه ولا أحـصـيت أوصافه بتعـدد[35]

إن هـذه اللوحـة الشريفـة الناطقـة بالفخـر التـي سـطرها الشـاعر بـن جابـر لم تكـن إلا نـثرا مـن أقـوال رسـول اللـه في صاحبـه أبي بكـر، ولكنـه كان نـثرا ملهـما للفـن الأدبي النبيـل ومنبعـا تصـدر منـه الأخـلاق، فلـم يـتردد الشـاعر في تحويـل المعـاني مـن مجـال إلي مجـال آخـر، ترتسـم فيـه موهبـة الفنـان العـربي الأصيـل الملتـزم بتعاليـم النبـي الكريـم، فهـا هـي مواقـف السـيرة العطـرة تتداعـى عـبر خواطـر التاريـخ لتصطـف المعـاني فتحفهـا المشـاعر لتولـد نظـما مـن الشـعر العتيـق، ليكـون توئمـا لمنثـور تلـك المعـاني، ليفـرض نفسـه عـلي مـر الزمـان عـلي كل مجـالات وأجنـاس وأنـواع الأدب الإسـلامي، ليصبـح معينـا لا ينضـب ومقتبسـا لا يخبـو، فهـا هـي أبحـر الشـعر وقوالبـه الأدبيـة تحتضـن النـثر لتأخـذ منـه المعنـي للمنظـوم وتـترك شـكله للمنثـور. ولـذا نجـد أن لأدب الإسـلامي اتفـق مـع الأدب الجاهـلي في

عدد من الموضوعات مثل: الرثاء والهجاء والمدح والفخر، والحكمة والورع، والحماسة، ولقد حبب الإسلام جمال الطبيعة إلى النفوس بذكر مظاهرها في القرآن: من السحب والرياح والأمطار، والليل والنهار وخلق السموات والأرض، وهناك موضوعات تلاشت مع ظهور الإسلام ولا تعد من الأدب الإسلامي مثل: ذكر الخمر والاعتزاز بشربها، والتشبيب من ذكر النساء والتصابي لهن، وتذكر الهوى المحرَّم من ديار المحبوبة وأسر النفوس لذكرياتها والمخاطرة بالروح للقياها، ولذلك نجد أوجه التشابه قائمة بين أدبي الجاهلية والإسلام في الشكل دون المضمون.

الخاتمة:

إن الحديث عن طبع الالتزام والمثالية والواقعية في الجاهلية والإسلام أدب متجدد مع تطور البشرية والعلوم والثقافة الإنسانية، وعلم متمدد في آفاق المعمورة، يدور مع عجلة الحياة اليومية ويتناسق مع إيقاع الحركة الاجتماعية، بما يثبت أن هذا النوع من الأدب هو المحرِّك الأساسي للإدراك الحسي والمعنوي داخل إطار النفس البشرية بالتأصيل والاعتقاد، وخارج محيط المجتمعات المادية بالتعليل والإثبات، وهذا الفهم يقودنا للبحث عن قيم روحية تستوعب مجمل الآداب والأخلاق، وتستقطب سائر الحضارات في إطار بيئة واحدة تتجسد فيها معالم الإنسانية وتتجلي فيها تعاليم السماء برسم السنة النبوية

ولما كان هذا هو المفهوم والمغزى من دراستنا قادنا ذلك للوقوف علي طبع الالتزام في الجاهلية وما اعتمدته العرب في هذا الجانب من رصين الشعر العربي الأصيل الذي التزمت فيه بأبحر محددة وتفعيلات مقننة وموضوعات متفق عليها، فرأينا كيف كان الالتزام وأدبه مع الأخلاق والقيم الاجتماعية في الجاهلية مع اختلافها سلبا وإيجابا، ثم رأينا كيف أن الإسلام اتفق مع الشكل الفني للقصيدة العربية دون المضمون، فأُفرغت القصيدة الجاهلية من محتواها المعنوي وأعيد ملؤها بالمعاني الإسلامية، مما جعلنا نتناول في بحثنا نماذج تتجسد فيها تلك المثل والقيم، فجاء هذا البحث المتواضع الذي وضعنا أمام أول خلافة بشرية بعد رسولنا الكريم لنقف عند أول تجربة في تأصيل طبع الالتزام في أدب الإسلام مراعين في ذلك جوانب المثالية والواقعية والالتزام، وما يتفرع منها من مجالات الأدب الإسلامي وأقسامه المختلفة وأجناسه المتعددة في زمن لم يقف فيه التصنيف علي قدميه، بل كان موجودا بصفة تطبيقية، وكانت حقبة صدر الإسلام مسرحا لوقائعها وأنموذجا لطبائعها، فسجل التاريخ نبضات سيرها في وسط أمواج عاتية من التيارات العصية من أذناب العصر الجاهلي، وذلك ما بين تحديات القرآن الكريم، ومعجزات السنة النبوية وبين رواسب آداب وأخلاق من بقايا الجاهلية، فجاءت تلك الأشتات من فنون الأدب في هذا البحث المتواضع.

النتائج:

يمثل الطبع القيم والمثل الروحية وهي قيم أدبية صالحة لكل زمان ومكان.

- أعطت الخلافة الأولي القراءة الصحيحة لطابع الأدب الإسلامي، في جوانب الالتزام والمثالية والواقعية.

- لقد باءت آداب وأذناب العصر الجاهلي بالفشل أمام تحديات القرآن الكريم والسنة النبوية.
- إن تيار الأدب الإسلامي أقوى من مظاهر الجاهلية، والتنقيب في القيم الروحية من مطالب الإنسانية.
- الخلافة الأولي هي النافذة التي كسرت حاجز الانسداد الأخلاقي، من واقع الحوار الأدبي من منابعه الصافية.
- التوجهات القرآنية والتعاليم النبوية، أكثر القيم ثباتا أمام التيارات الحضارية والمتغيرات الثقافية.
- إن الأدب الإسلامي يمتلك المقدرة البرهانية على التفوق النوعي بين زحام المثل غير الشرعية.
- كانت مجالات الأدب وأجناسه وأقسامه وفنونه المتعددة ماثلة بصورة تطبيقية في الجاهلية.
- كان مفهوم الالتزام الأدبي متأصلا في الجاهلية، متمثلا في موضوعات الشعر وابحره بتفعيلاتها المعهودة

التوصيات:

- الالتزام بالقرآن الكريم والسنة النبوية مصدرا للأدب.
- الالتزام بالسيرة النبوية مرجعا للالتزام والمثالية والواقعية.
- الوقوف على المثاليات الأدبية أولا قبل النظر في الالتزام والواقعية.
- معرفة المثاليات والقيم الروحية والأدبية لدين الإسلام، للتغلب على المثاليات غير الإسلامية.
- التأكيد على أن الحضارات والثقافات العالمية تستمد جذورها الأدبية وقيمها الأخلاقية والروحية من الإسلام.
- الوقوف على تراث العرب الجاهلي من الشعر والنثر الذي كانت تعده ديوانا لمثلها، ومفسرا لطابع أخلاقها ومرجعا لواقعية قيمها، والتزاما بآدابها وأخلاقها.

الهوامش:

(1) محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ج8/ص232.

(2) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر، 1399هـ، 1979م، ج1/ص383

(3) لسان العرب، مرجع سابق، ج12/ص541.

(4) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين، ج33/ص418

(5) محمد بن سعد الدبل، من بدائع الأدب الإسلامي، إصدار نادي المدينة المنورة، رقم الكتاب (67)، دار البلاد للطباعة والنشر، جدة، من مقدمة الكتاب.

(6) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، دار الأرقم، بيروت، تحقيق: عمر فاروق الطباع، ج1/ ص117

(7) المرجع السابق، ج1/ص118

(8) المرجع السابق، ج1/ص135-132

(9) المرجع السابق، ج1/ص146

(10) المرجع السابق، ص: 118-120

(11) المرجع السابق

(12) شوقي ضيف، تاريخ الأدب الجاهلي، دار المعارف القاهرة، الطبعة 28، 2008م، ص: 301-303

(13) جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص:188

(14) أحمد بن تيمية، شرح العمدة في الفقه، مكتبة العبيكان، الرياض، 1413هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. سعود صالح العطيشان، ج4/ص61

(15) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، منهاج السنة النبوية، مؤسسة قرطبة، 1406، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ج5/ص453

(16) فخر الدين محمد بن عمر التميمي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ 2000م، الطبعة الأولى، ج20/ص89

(17) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، ج2/ص211

(18) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، ج12/ص361

(19) سبط ابن التعاويذي، الديوان ج1/ص348

(20) أحمد بن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (كتاب التوحيد) ج7/ص530

(21) إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربيةج2، ص932.

(22) شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج21، ص83.

(23) محمد بن عبد الله الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1421هـ 2000م، الطبعة: الأولى، ج1/ص14.

(24) محمد بن قدامة المقدسي، العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام بن تيمية، دار الكاتب العربي، بيروت، تحقيق محمد حامد الفقي، ج1/ص499.

(25) السيوطي، تاريخ الخلفاء، (مرجع سابق) ج1، ص86

(26) المتنبئ، الديوان ج3، ص341.

(27) محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1415ه، 1995م، ج2/ص11

(28) كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، دار الفكر، تحقيق د. سهيل زكار، ج1، ص243.

(29) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، ج17، ص67.

(30) المرجع السابق، نفس الصفحة

(31) عز الدين بن الأثير الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1417هـ 1996م، الطبعة الأولى، ج1ص553.

(32) عبد الملك بن حسين المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ 1998م،ج1، ص389.

(33) أحمد بن عبد السلام الجراوي، الحماسة المغربية مختصر كتاب صفوة الأدب، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1991م، الطبعة الأولى ج1، ص102.

(34) حسان بن ثابت، الديوان ج1، ص51

(35) أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، 1388 هـ تحقيق د. إحسان عباس، ج7/ص360